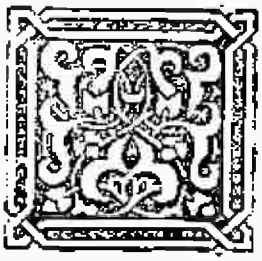

شفشاون

لابن الريحاني (١)

صروح مديدة منخفضة ، ظاهرها ابداً جديد ، صروح بيض كزهر السوسن ، ناعمة كفجر الربيع ، مزخرفة متسنة ، صروح كقصور الجن ، بنات الخيال وقصص المحال ، يسند كفتيات الحور ، بأقواس كالنونات ، خطها قلم ساحر ، فمكنها يد عابثة ، صروح بتيجان انشبت من اعالي الحصون ، لتروح فوقها الحمائم ، وتغرد الحساسين ، صروح لفنانين مولهين ، فروا من حقائق الوجود الى حقيقة الحياة الخالدة — من الاشكال المتآخذة الى الوئام والتجانس في وحدة الجمال ، صروح خفيفة الظل فوق أرض قاسية ، تحت سماء كلها بهاء وحنان ، صروح كالعلب لاطفال الارباب ، وما هي باللعب ، ولا هي للاعبين

ولمن الصروح ؟ ألحيارة الحديد وعبيد البخار ؟ ألمطاعين الوادعين الصالحين النافعين من ذرية مباركة لا ، انسية ولا جنية ؟ ألحيوان والانسان ، للذابح والحارس من الناس ، وللناهبة المسافات ؟

حصّن فؤادك واستمع . ان هذا الصرح لسكة الحديد في محطها ، وذاك الصرح لمجرر تطوان ، والآخر على الهضبة الخضراء هو مخفر عسكري

هي الفنون والسحر بها ذوقاً ومنفعة . هي الفنون والروح العربية الاسبانية المتزاوجة المثمرة . هي الهندسة الساحرة ، الاندلسية القرناطية ، وقد تجسمت فيها الامنية القصوى ، الناشئة من فنون الشرق والغرب ، ومن تشوقات القلوب المتعلقة بآثار الماضي المجيدة وبخرائبه الفتانة — بروح الماضي وذكراه

هي هي صروح الروح الخالدة ، وقد شيدت بيد الحمراء والزهراء ، للحديد المحدود ، وللفحم الموقود . وشيدت للجزارين يجازون الانام على الطاعة والوداعة والخير . وشيدت لحماة الامن والنظام

الصروح البيض المتوجة بتيجان الحصون ، المحصّن فيها الفن المغربي الاسباني ، تودعنا ونحن خارجون من تطوان

(١) من كتاب يؤلفه في المغرب الاقصى وقد يكون عنوانه رحلة في منطقة الحماية الاسبانية

والطريق الاسحم الصقيل ينساب بين الروابي الخضر ، المتألق ظلُّها في روض الصباح : الراقص زهرها للشمس الشارقة — ينساب ذلك الاسحم الصقيل بين تلك الروابي ، في سفوحها وتلاياها ، وعلى صدرها المجلود ، وفوق جبينها الصامد لسهام الشارقة الغازية

الطريق وابناء الطريق وزينات الطريق ، يمجدها الفجر ، ذلك الساجد في سمائه ؛ بين الحب التقية ، ويلحفها بسمائه الساطرة ؛ ويدخل على قلبها نور محرابه الدُّرِّي

الطريق وابناء الطريق — رجال البوادي يسوقون الدواب المثقلة بأحمال الارض الجوّادة — يسوقونها الى المدينة بما تنبت الارض وتثمر ، بالحطب والقمح والبقول والحبوب . وبنات البوادي يراتبطهنّ الشبيهة بالمظلات ، تتاعس تحتها العيون النجل ، في سمرة الخدود ، وهنّ ممتطيات ظهور الأتن الوديعة الآذان ، الطائعة الصابرة المكدودة

الطريق والحركة والسكون في الطريق — سكون الفجر الوفي الازلي ، وحركة الشعوب المتقلبة الزائلة ، جيلاً بعد جيل ، منذ وطأت هذه الارض أرجل الفينيقيين ، ثم الرومان ، ثم البزنطيين ، ثم القوط والعرب والفرنجة اللاتين الى زماننا ، فرأت عين الفينيقي منذ ثلاثة آلاف سنة ما نراه نحن اليوم — هذه الوجوه السمر الجافة الاهاب ، وهذه العيون السود الناعسة ، وهذه الشمال واليمانس والشماريخ ، وهذا السكون في الوجوه والعيون الحاجب للعزم والشدة والاستيزاز

بوادي المغرب من عرب وبربر ، صلة الخير بين المدينة والارياف ، بين معدة جشعة ، وقلب خاشع رشائم ، بين شهوة لا تزول ورحمة لا تحول ، بين فم يردد دوماً : هات هات ، ويد تلبي يوماً بعد يوم ، مبسوطةً غير مقبوضة ، لا تكل ولا تمل

الطريق وزينات الطريق . ومنها سيارات هذا الزمان الطامعة بالمسافات تطويها وتخفيها ، وهي تمزج انفاسها الغازية بانفاس الطبيعة الشذية ، تثير بالحقول والمروج ، وبالزهور والرياحين ، كأنها من الطريق اليابس العابس القيم ، لا تستحق وقفة ولا نظرة ، ولا شفقةً عابرة

الطريق ، طريقنا الى شفشاونَ ، بعد حبس في المدينة يومه شهرٌ وشهره دهرٌ ، حياكَ الله حياك ، وجعل الحجارة المرصوفة والأنفس المخصوفة ، فداك

الطريق والربيع الزاهي الى جانبي الطريق ، وتوقيع على رؤوس الربى ، وتحت في الوادي الريّان ، بجوار النهر ، نهر مرتيل النائم الكسيل . أو هو نهر ورع متقشف لا تهزه نشوة الربيع ، فيسير ويدور على هواه ، هادئاً ساكناً بطيئاً ، سيرَ الخير في العالم ، ويتقبل الجزية التي تؤديها له الربى والجبال — ساقيةً هنا وسلسبيلاً هناك — بيد صفراء ناحلة

الربيع وهو واحد في المغرب وفي لبنان ، طرّق هذا الشاطىء الافريقي الاسيوي ، هو واحد في نبضه واشكاله وزمانه ويحيي البلدين على اليوم — على الساعة — في التقويم ،

لا يبطيء ولا يسرع ، لا يتقدم ولا يتأخر ، فيُسمع صوت الحصون ، وتُشهد طلعة الشمس في آن واحد هنا وهناك

وهي ذي النباتات الجبلية ذوات الأريج الكامن والمنتشر — الصعتر والفصعين والقندول الزاهر . وهناك الدفلى البيضاء والحمراء تميل على ضفتي النهر . وقد شاهدنا في بعض الأماكن شقائق النعمان ، والأصفر من الأقحوان

وهوذا العلم يغزو حتى هذه الأصقاع المغربية القصية . تلك الأبراج من الحديد والعمد من الخشب ، هذه لأسلاك البرق ، والأخرى لأسلاك الكهرباء ، تسير جنباً الى جنب بين أشجار الزيتون البرية ، والخرنوب : عجبت لزيتونهم فلا يلقحونهُ فيثمر ويفي ، ولخرنوبهم ، فيطعمونهُ للمواشي ولا يدّخرون

وهوذا مخفر آخر من مخافر القبائل ، ومنها بجوار تطوان بنو قُرّش ؟ قرّش أم هل هي قريش ؟ يجب ان تُردّ هذه الأسماء الى أصلها العربي . ولكن المغاربة لا يألون ما يحل بالأصوات . وان هم داووها فالاهمال ، فيطول يومها ، ولا يحول اعتلالها

وقد يخترعون أصولاً غريبة في الدين والتفسير فيتكثر التوحيد لاهنة ، او ينقع بقاع الصوفية ، ويؤثر الزوايا على المساجد ، والمرابطين على العلماء . هي الفتوحات والاقاليم القاهرة . وهي العقائد في قلوب الفاتحين ، تنتقل الى حقائبهم ، تتأثر بالمناخ والمحيط ، وبتقاليد المغلوبين انفسهم بعُدَ الاسلام عن مهده ، فسادت في أندلسيه الفلسفة ، وكادت تتغلب عليه ، وسادت في مغربه روح القبائل البربر ، فتح ابوابه لتقاليدهم وخرافاتهم الوثنية — لأوهامهم وسحرهم وتعاويذهم — بعد ان أخفق في مقاومتها وعجز عن التغلب عليها

هذه الكلمة جرّها مخفر بني قُرّش — قريش ؟ — ونحن ندنو من مدينة هي معقل الدين والعلوم الدينية ، او كانت . فقد قيل لنا انها تجهم المغرب . وانها لسبب آخر تابلوس المغرب . وقد يكون التشبيه مثل الاسماء المشوهة بالتحريف ، فتبحث في تجهم المغرب عن المراديب والمدارس فيها فلا تجدها — وقد تجد في تابلوس المغرب بعض اليهود . فالتشويه في التشبيه مستفيض كما هو في الاسماء ، ومثل كذلك

ولكن في الاسماء الكثير من الفصيح السليم ، وفيها ما يسوّغهُ الاصل البربري . فقد ذكرت المخفر وهو في اصطلاحهم مرتّب . وترتب المرتب المدشر اي القرية . فالمرتب مقبول مكرّم في قواميسنا العربية ، والمدشر مرفوض مجهول ، الاّ في القواميس البربرية ، وهي غير موجودة . ولا أحد من اهل البلاد العرب او البربر ، يستطيع ان يرد اللفظة الى اصلها اللغوي فيكتشف سرّها

أفلن نقول المدشر وقد مررنا بمداشر عدة ، وما شاهدنا غير نموذج منها ، كوخ او كوخين

بجوار المرقب ، والنموذج طبق الاصل ، مبني من القش والطين مشكل هرمي . أما المسجد فهو مختبىء في الوادي او في ثنايا الروابي

وهناك شفشاون مجموعة ظلال على الافق المشرق . وهناك النهر في ناحية غير تلك التي كان رفيقنا فيها . فسألت الرفيق الفريد البناني ، الذي تعلم جغرافية المنطقة بالاسفار المكررة في الوادي والحواضر : كيف انتقل النهر من يميننا الى يسارنا ، وسبقنا فأصبح أمامنا ؟ فعلمت ان نهر مرتيل لا يزال مكانه وراءنا ، وقد اختفى في أحد الاودية المنحدرة من منبعه . أما هذا الذي أمامنا فهو نهر سيبُّف اللاو ، والسيف ساحل الوادي — في القاموس كما هو للبحر

اننا اذن في رأس وادي اللاو ، وقد كتب لنا التعرف اليه ، من رأسه الى قدميه. وسنشهد هناك العجائب البهجة — وستشهدها معنا ، ايها القارىء الصبور ، ان ثبتَّ في الصبر والنظار. فهوذا الآن سيب اللاو ، وهوذا نهر السيف ، المنحدر من جبل شفشاون في احد فرعيه ، ومن جبل باب تازي في الفرع الآخر . فجبل شفشاون أمامنا هناك ، على الأفق الشرقي ، ولا يزال الثلج اثر في اعاليه . والى جانبه جبل القلعة ، ووراءه — وراء ذلك الافق المشرق ، باب تازي وجاهها

ان نهر السيف لأنشط من نهر مرتيل : فيُرى انهُ يجري وانهُ يسرع في جريه ، ويفهقه في انحداره . ترى ضحكته الفضية وتسمع . وان لهُ مرحلة يجتازها من نبعه ، فيقف القرعان متحدين طوعاً للعلم ، وقد شيد لها مركزاً قريباً من شفشاون ، وفيه الادوات والمحركات لاستثمار تواها . نهر السيف ، وقد حشدت قواه لتوليد الكهرباء . فرأينا أبراجها في الطريق ، وهي تحمل النور الى المدن — الى شفشاون وتطوان والعرائش ، والى القصر الكبير والقصر الصغير حتى والى سبتة وطنجة

دنونا من البساتين ، وقد نورت اشجارها ، وفاح طيبها ، وعدنا الى الصروح ، الصروح البيض المتوجة بتيجان الحصون ، الحاملة خارجاً وداخلاً رسالة الحمراء في الهندسة الفرناطية شكلاً ومعنىً — جمعاً وتفصيلاً — في النقش والتلوين ، وفي التلحين ، وفي الغناء ، وان أجمل الالحان في هذا الزخرف ، وفي هذه الألوان . هي الصروح العربية الاسبانية ، الفرناطية المغربية . هذا ثكنة للجيش — وهذا — في وسط جنينة زاهرة بالقرنفل والورد والنرجس والياسمين — مركز المراقبة ، وذلك الى جانبه مركز الخفر الشريف . تحيا في الاول اسبانية وقد أقامت للحماية مراقبات يديرها ابناء حكومتها من عسكريين ومدنيين . وهذا مرتب الناحية ، ندخل فاذا نحن في شبه «حمراء» صغيرة منسية . فتبدو المكاتب فيها كوائد الصيارفة في المعابد . وهذا المراقب الضابط الشاب ، في جزمة لامعة وثوب أصفر عسكري ، انهُ لمن المتناقضات

ولكنَّ في شفشاون صرحاً اندلسيًّا واحداً لا تناقض فيه — هو الفندق الجديد . فان

كنت من جابوا الاقطار القاصية والدانية ، وشاهدوا في المدن الحالمة والمدينة كل عجيب طريف ، فصبحت يابس الشعور ، لا يهيج يهوجك ، ولا عجيب يسهبك ، فعد هذه الصفحة ودونك غيرها . وان كان لا يزال لوح نفسك طريًا تطبع فيه الآيات الطبيعية والفنية ، فتزيدك علماً وحبوراً ، فواصل ما انت فيه الآن ، ولا تخش الخيبة أو الملل

ما هذا المنزل القائم بين الجبال ، على هامش المدينة ، بزل ضخم فخم عظيم ، ولا هو في ظاهره على شيء من النادر والممتاز في الجمال . ولكن في داخله السحر الساحر ينقلك بلحظة عين الى الاندلس — اندلس العرب . ذلك السحر هو في روعة الاستقبال — في النقش والزخرف والالوان ، على الجدران والسُّدد ، وفي السقف ، وتحت قدميك . هات القهوة يا غلام

ان كتاب هذا السحر لمن « حزام » بني الاحمر الخالدة — يلمحتسر — بلهجة المغرب. وأدوات السحر من عامل البلاط الزليجي بأشبيلية ، وأستاذ السحر من هذه البلاد المغربية والسحر الحلال ، هاكه في هذه الرسوم الهندسية بخطوطها الخضر والصفر والحمر ، وفي هذه الفسيفساء — الاراييسكيه — السوداء الزرقاء البنيه ، تتجلى في السقف ، وترقص على الجدران ، وحول السد ، وعند قدميك ! — هات الحمر يا ولد

أنا في غرناطة ، في المضيف السلطاني بالقصبة !

هو السحر القديم . وفي الطابق الثاني السحر الحديث الجديد . في الطابق الثاني تنتقل انتقالاً آخر سحريًا . من غرناطة الى باريس او نيويورك — من الفن الساحر المتعب للاعصاب الى الصناعة الموفورة الراحة والرقاء — من الترف الفني والباطني الى الترف الجسماني — من الكرسي الخشب المطعّم القاسي الى الكرسي المتجّد الوثير — من الالوان المثيرة للافراح والاشجان ، الى اللون الواحد الساكن المكّن ، المزوج بماء الحياة والاطمئنان

والى جانب كل غرفة من غرف النوم لهيم هذه الدنيا — حمّام مجهّز بجميع أسباب الرفاه والبهجة ، بأحواضه الكبيرة والصغيرة ، بزليجه الاشبيلي ، بأنواره الكهربائية ، بمواسيره الخفية الحاملة اليك الماءين الحار والبارد ... يا غلام ، أين المدلكة ؟

أيها القارىء العزيز ، ان كنت ممن شاهدوا عجائب الدنيا في الشرق والغرب ، وما زلت تهتز دهشاً وطرباً لكل مشهد غريب عجيب ، وعند كل مظهر من مظاهر الجمال والاناقة ، فانك لمن الفائزين ، وانك لفي العيد

وقفنا في طنف من أطناف النزل نمتع النظر بالمشهد الطبيعي المتمم للجمال الهندسي والفني . فسألت معاون المراقب الذي كان رفيقنا ودليلنا ، عن بيت برج على رأس احدى المضبات في الجانب الآخر من الوادي ، فقال : هو مسجد — ومن يقصده للصلاة وهو بعيد عن

المدينة ؟ — قلما يُقتصد . — وماذا بقي هناك ؟ — بناء احد المراقبين ليزين به تلك الربوة

الزينة والزخرف — الجمال اللطيف في الهندسة والصناعة والفن ، وفي الحياة العاطفية ! ان الانسان لأشد نزعة اليها ، وأبلغ شغفاً بها ، من العرب . بل هي الصلة المتينة بين الشعبين — تنحصر اليوم في الفن الهندسي والثقافة ، وستشمل غداً — دع المتنبؤ للانبياء

خرجنا من النزل نمشي الى الساحة الكبرى ، فاذا هي تغص بالناس من المدينة والمداشر المجاورة لها . هو يوم السوق التي تقام فيها كل اسبوع ، فتحتلها النساء والرجال للمتاجرة ، فتتربع المرأة على الارض ، ويجلس الرجل القرفصاء الى جانب ما هو معروض للبيع من البقول والثمار والحبوب ، ومن الأقمشة والأحذية والبرانس ، ومن مواعين الفخار والنحاس — من الدبُّوس — كما يقول « العطار » اللبناني — الى جهاز العروس — سوق عامرة بالجماهير من بدو وحضر ، وبما فيها مبعثر على الارض للبيع والشراء فتم الصفقات — وهذا ما أدهشني — باليسير من الكلام ، بالصوت الخافت — لا صياح ، ولا ضوضاء ، ولا ازدحام

قومٌ متمدنون ، يجلسون على الارض ويتاجرون . فمن هم ياترى ؟ هل هم العرب ؟ هل هم البربر ؟ ام هل هم من الجنسين وقد تخالطا وتشابها ، فتحسب العربي بربريًّا والبربري من العرب العرباء . انهم بيض الوجوه ، يغلب في النساء الحسن ، وفي الرجال الهيبة وشدة البأس

وهذه اللهجة العربية لهجتهم ، لقد أدهشتني الدهشة الكبرى ، فأثارت بي كوامن الذكرى . انها لأليفة الأذن بسرعتها ووقفاتها وغناتها ، وبما فيها من مَحْت وادماج وتسكين لا يجيزه احد من النحويين الملتحين أو المرد ، المحافظين أو المجددين . حيّا كلّه = حياك الله . باسْتَلِيك = لا بأس عليك

اللهجة والوجوه ، تنقلني النقلة السريعة البعيدة — تنقلني الى اليمن . هناك في الأعالي في برع وذمار وصنعاء — رأيت أمثال هذه السحن البيض ، وهناك سمعت مثل هذه اللهجة الغناء ذات النقرات والوثبات والوقفات والمدات

وهذه السوق بقناطرها الواطئة ومخازنها الصغيرة ، وقد تربع التجار في دكاتها على حصير أو فراش أو سجادة ، هذه السوق بدرجاتها ومنعرجاتها ، وبروائحها الشبيهة بالبخور الهندي والبهار والكمون ، وقد سحقت في الفهر الواحد ومزجت بنية من بوقفة العطار — هذه السوق بجوها وروائحها تنقلني الى اليمن

وهذه البيوت ، لولا قرميد سطوحها ، بناية . وهذه المدرسة لصبيان القرآن ، يتلون قراءته بالالواح المكتوبة لا بالكتاب المطبوع — اليمن . وهذه الأنوال — اليمن . وهذا التوقُّض الشفشاوني — اليمن

أقف عند هذا ، فلا تضلنا التشابيه والاستعارات . ان لشفشاون ، على ما ذكرت صفاتها الخاصة ، وأسها النظافة في ساحاتها ، وفي أسوارها المدرَّجة ، وفي أهلها ، وفي بيوتها

وقف بنا الرفيق الدليل أمام مدرسة دينية عالية — هي مدرسة شفشاون لتعليم القرآن والفقه ، فدخلنا ، فاذا نحن في صحن فارغ نظيف كقلب البادية ، لولا شجرة الليمون وانشاذروان العامة ، لا ماء فيه . وحول الصحن المدرسة يطابقين فيهما غرف التدريس والاكل والنوم لكل طالب غرفة صغيرة فيها سرير وخزانة وطاولة للكتابة . كل ما فيها بحاناً ، وكل ما فيها نظيف

ولكن الرفيق وغ المدير لان الرواق أمام الباب لم يكنس في ذلك اليوم — فاعتذر المدير وراح ينادي الخادم

ثم قال رفيقنا : الحكومة تقوم بنفقات هذه المدرسة وتدفع رواتب المعلمين والخدم . فعلينا أن نطالبهم بالواجب عليهم

ليس في العين مثل هذه المواظبة على النظافة ، وليست أنوال العين كأنوال شفشاون وان كانت في البلدين يدوية . فتلك شبيهة بأنوال لبنان الضيقة ، عرض نسيجها لا يتجاوز الذراع الواحدة ، فيشغل كل عامل نولاً واحداً

أما أنوال شفشاون ففي عريضة وسع نسيجها متر ونصف متر ، فيشغل النولَ الواحد عاملان ، كلاهما يحركين . الخيط في الواحد مفتول وفي الآخر محلول ، فيجيء النسيج متيناً خشناً مزغاباً . ولا يصبغ كما في العين . بل ينسج من صوف الغنم ويستعمل بلونه الطبيعي للمشالح والبرانس . وأمام بيت الحائك تينة أو مشمشة ، وعلى سطحه عريشة من عرائش العنب — لبنان

خرجنا من المدينة ونحن نواصل السير في بقعة من الارض جبلية لغاية . وهذا نبع النهر نهر سيف اللاّو — وقل نهر الكلب عند نبعه ، أو نهر ادونيس في مجده بأفقه — يتدفق من بين الصخور في قلب زاته الطبيعة بشجيرات من الزيتون البري والبطم والسنديان والى جوانب المياه تتراحم الدفلى الزاهرة

لا بدَّ للدليل من قصة يقصها عليك — فقد اخبرنا أن السلطان الحسن ، والد السلاطين الثلاثة ، عبد العزيز وعبد الحفيظ ويوسف ، زار هذا المكان ونصب خيامه حيث كنا واقفين وان الشمس تشرق في ايام الجمع والاعياد على سرب من النساء يقصدن النبع للنزهة ، فيلعبن ويتسلين في هذه المياه بين الصخور

عدنا من النبع في طريق آخر بين البساتين المسيجة بالصبر ، المزدانة جوانبها بأقمار البلسان ، فكنا نسمع خرير الماء ، ولا نرى غير بريق متهُ هنا وهناك بين اشجار الجوز والتين ثم يظهر شلالاً عند طاحون ، او ساقية في بستان ، فيذكرنا دوماً بلبنان . هي ساعة في بقعة

من الارض طيبة مثمرة — وألذ ثمارها الذكرى والخيال . فمن النزل الى المدينة الى النبع انتقلنا ثلاثة انتقالات

شفشاون [1] بلدة حديثة العهد ، أسست سنة ١٤٧٠ ، عند سفح الجبل الحامل اليوم اسمها على حضبات هي كالدرج الى رأس النبع . وفي هذا الدرج الطبيعي الاسواق المبددة ، والادراج المرصوفة بالحجارة . وقد صقلتها ارجل الناس فأمست مثل لعالم المسحاء الملساء ، مزلقة للاحذية الفرنجية . وفي شفشاون مزالق اخرى — لا للفرنجة بل للعلماء من ابنائها . فهم يذكرون الماضي، يوم كانت مثل التجف مدينة العلوم والاسرار الدينية، فيطعمون بالتمم الخالدة ، ولا يتقون ، فيقعون بالزائل منها — يزلقون . ولكنهم لا يؤلفون الكتب ليسوّغوا المزالق ويشرحوها . وهذه من حسناتهم . ومنها انهم يزدرون الجهل وأهله حتى الاهمال ، فيسمون الاساطير تردد ولا يبالون

فمن ذا الذي أشرف على بناء شفشاون ؟ هو ولي من الاولياء يدعى علي بن راشد = راشد (يلفظ الشفشاوني الراء كما يلفظها ابن باجيس = باريس) ولولا ان راشد مزار عند مدخل المدينة ، وكرامات في الحياة وفي الممات . فهو الذي امتشق حسامه وضرب به الصخرة في سفح الجبل فتفجرت منها مياه النهر

وفي شفشاون اليوم ثمانية آلاف نفس تزج أجداد اكثرهم من الاندلس قبل سقوط غرناطة وبعده . ومن هذه الثمانية الآلاف الفٌ او مائةٌ او عشرة — لست أعلم بالتحقيق — يتكّون في كرامات الولي المذكور ويتكرون أعجوبة سيفه المتحدر من سلالة عصا موسى

وفي شفشاون مزالق لليهود . فيوم دخلت عساكر اسبانية المدينة سنة ١٩٢٠ ، رحبت بهم الجالية الاسرائيلية ، فابيضت وجوه واسودت وجوه . وما كان المبيّضون مفلحين فعددهم اليوم أقل مما كان منذ عشرين سنة . وقد تصير شفشاون شبيهةً كل الشبه بتابلوس

اما حسنة حسناتها بعد الظاهة والاثوال ومعمل الزاربي والمدارس الدينية والدينية، حسنة هذه الحسنات مدرسة البنات ومديرتها السيدة رحمة الدني حرم عبد السلام الاندلسي . والسيدة رحمة الريفية المولد ، المتعلمة بطنجة ، المحسنة اللغتين الانكليزية والفرنسية ، هي اول امرأة تعلم وتكتب في هذه المنطقة من المغرب الاقصى . وقد تصير وليّةً — طال عمرها — فتدفن الى جنب مولى شفشاون علي بن راشد

تقسم هذه البلدة القدسية الى خمس حومات اي احياء هي حومة رأس الماء ، القريبة من

(١) وتختصر فيقال شاون فتكتب بالاسبانية Xauen وهي على مسافة خمسة وخمسين كيلومتراً من تطوان وتلو مسافة مئتين من سطح البحر

التبع ، وحومة الحرّازين (الاسكافيين) وحومة ريف الاندلس التي سكنها النازحون من اسبانيا ، وحومة سوق الغنم سوق بها قديماً ، وحومة ريف الصبّاغين اي الصبّاغين

سألت الدليل : وفي أية الحومات يسكن اليهود ؟ فأجاب : في الجهة حفنة منهم منثورة على حواشي الحومات

ليس في شفشاون من الآثار التاريخية غير القلعة التي بناها البرتغاليون . القائمة في الناحية الجنوبية الشرقية من الساحة الكبرى . في هذه القلعة تحصن الريسوني يوم كان يحارب الاسبان ، وقار كلمته المأثورة يخاطب القبائل : هذه بلادي وأنتم أهلي ، فلا خوف على البلاد ما دمت حيّاً ، ولكنها داهية بعد موتي

وكانت هذه القلعة مركزاً لعبد الكريم بعد الريسوني ، فحدث بين الاثنين ما سنذكره مفصلاً في موضعه . وما كان القدر ليرحم المجاهد الاول ولا المجاهد الثاني . قال بطل الريف ، البطل الشريف : لعمالة شاركنا في الجهاد . فأبى وكان الشريف يومئذ مريضاً في بيته بتزروت ، ومتحركاً مع ذلك في سياسته بين القبائل المتقلبة ، والدسائس المتقلبة . ومن رجال عبد الكريم الذين حملوا غصن الزيتون يومئذ الى الشريف الريسوني ، ثم السيف عليه ، السي يزيد بن صالح قائد قبيلة بني بُرّين ، وباشا شفشاون الحالي

زرنا الباشا في بيته ، فاستزريت اللقب لما شاهدت صاحبه . وما محل الباشاوية من هذه الحلقة البدوية الرائعة ؟ لقد خط الدهر في وجه ابن صالح سفر المغامرات والغزوات والشدات فأجاد ، وأيدته بغية سوداء بيضاء كأن غبار المعارك لا يزال لاصقاً بها . وأبدت الدهر عينان غائرتان لا تزال النار بادية في رمادها . وأيد الدهر فمٌ في سكوته هول ، وفي ابتسامه أمن واطمئنان

الباشا يزيد ! حاشا وكلاّ . السي يزيد ! بئست الالقاب المدنية والحزبية . متى كان ال « باشا » من تراب هذا المغرب ؟ وهل لبني عثمان اثر غير هنا وهناك في شرقنا العربي ؟ أريد الجواب من عجيل باشا الياور . أريد الجواب من عجم باشا سهيد . لا يا اخي . لا تضيع الوقت في السؤال والجواب . ان هذه الالقاب وأعطيتها — سعادة ، فخامة ، معالي — لمن مكرات الدولة البائدة . ولو كانت من غير المكرات فانها تستنتج حينما تضاف الى عجيل او عجم او فهد او هزلول او يزيد . أما السي — نصف سيد أو أقل — فهو أفتح وأنكر . اذن نقول الشيخ وليس أشرف منهُ لقباً في البوادي والحواضر

زرنا الشيخ يزيد بن صالح — أرأيت كيف تجانس الاسماء والالقاب ؟ — زرنا الشيخ يزيد في بيته فاستقبلنا في الباب ، ورصد أمامنا في درج ضيق عالي الدرجات — ذكرني باليمن — الى ردهة الاستقبال ، المشرفة بألوان فرشها ، على الأرض والدواوين والجدران ، أشراق ،

ابتسامه . وكان في اكرامه لنا عربيًّا فحًّا ، خُلُقاً وتقليداً . فجاء الخادم ، عملوق من سود السودان ، بقماقم خضر وصفر قدم قهوةً لكل زائر ، فصبَّ منه الزهر على الرؤوس والأيدي فسحت الوجوه وسُبِّح بحمد الله . ثم جاء العبد الآخر بمبخرة حُرق فيها عود الند ، فنشقنا منها وبخرنا الصدور ، وسبحنا بحمد الله

ثم جاء الخادمان بالـ « آتاي المتنع » وبأطباق عليها اهرام من الحلوى ، فشربنا الشاي في كؤوس من الزجاج كأننا في الحجاز ، وأكلنا من تلك المقرنات والمربعات المسلة ، وما سبحنا بحمد الله ، وهو هاهنا أولى بالتسبيح . ان التقاليد تقاليد تقيدها

وكنا قد علمنا ان مضيفنا ممن حجوا في العام السابق ، فسألناه رأيه في ابن سعود فقال بأسلوبه الوجيز : عربي كريم وحاكم عادل . ثم اخبرنا انهُ دعي لمأدبة أقامها الملك لبعض الحجاج وانهُ يحتفظ ببرقية الدعوة

وفي مساء ذلك اليوم بتطوان ، في بيت عبد الخالق الطريس ، اجتمعنا بغيره ممن حجوا في ذلك العام فأثنوا على عبد العزيز « العربي الكبير » و« الياسي القدير » و« الحاكم العادل » وما تعرضوا بخير او شرٍّ لمذهبه . انما في المغرب السني الشافعي . ولكل المذاهب لا تحول في هذه الايام دون الاقرار بالفضل ، ولا تتنافى في المروءة

طال الحديث ، وطابت فيه المقارنة . فلنخصه بشيء منها يختص بالبيوت ، وهي اجمالاً على شكلين بيت الشيخ يزيد بن صالح مثال الشكل الواحد ، والبيوت الحديثة في تطوان من الشكل الآخر . الاول — واكثر بيوت تطوان القديمة منه — عربي مبنىً ومعنىً ، عربي النطق والمزاج ، بيت صغير متواضع ، يتوارى ولا يتعالى . وبيت الاستاذ الطريس مثلاً هو عربي مغربي ، عربي الشكل مغربي المزاج منفسح منشرح وراء جداره العالي الأصمّ فيقوم بطابقيه حول صحن رحب ، مفروشة ارضه ، ومصفحة جدرانه ، بالبلاط الزليجي . وفيه كما في بيت الاستاذ محمد بنونه الذي نزل به الامير شكيب ارسلان يوم زار تطوان ردهة استقبال مفروشة بالفرش الاوربي ، مترفة في التقليد ، واخرى وطنية ، مغربية الشكل والذوق ، مغربية الروح والمظهر . وهي على الاجمال في الطابق الاول ، في صدر الصحن ، طويلة ضيقة ، مشطور طولها شطرين ، يفصل بينهما عُمُدٌ بأقواس ، وبدرجة ترفع الارض الواحدة عن مستوى الاخرى

وفي صدر هذه الردهة ديوان منخفض عريض طويل ، مدى الحائط ، حافل بالفُرش الوثيرة . المغطاة بالسجاد وبالوسائد الباهرة الالوان — مزاج المغرب . والى جانبي هذا الديوان في طرفي الردهة اي زاويتها ، سريران عاليان . اوسدتان . او عرشان . قد يستطيع الرياضي الحاذق الجوائز في القفز ان يقفز من الارض الى ذلك العرش قفزةً واحدة . ولا يستطيع

أمثالنا — أستغفر قارئي الرياضي — ان يدرك ذلك المز ابير درج بصدده

كثيراً ما فكرت . قبل ان اقدمت على السؤال . في هذا الشيء المفخم المتحشم بالفخامة . المكدس بالفرش المصفف بالوسائد المرفه بالاطلس والحرير . البادي بكثرة المزركشة كالعروس المجلوة . كثيراً ما فكرت في ماهيته — مهته — سبب وجوده . فهل هو من الاثاث ام من توافله . هل هو للزينة ام للاستعمال ؟

وهل يجوز في الحالين ، لغير العروسين ... اذن هو سرير الليلة الاولى . فكرت ، أقول، ثم فكرت. وقد يُستعمل بضع ليالٍ بعدها ، وقد يُدخر لشهر العسل ، بأجمه ، ثم يترك هناك لعسل الذكرى ، وان حامت عليه الذباب . فكرت ففكرت ، ثم تشجعت فسألت ، فعلمت انهُ لأهل البيت في الايام العادية ، وللضيف في الاعياد

فشرحها رب البيت قائلاً : ويوم الضيافة عندنا عيدٌ . وكما انهم يستعملون هذه السدة الملكية للنوم ، فهم يستعملون الزدعة الفخمة للمآدب ، فيكرمون فيها الضيف اكرامين في مأكله ومنامه

جلسنا حلقة حول طبق من النحاس، على طريقتنا البدائية في القرن الماضي، وزلطحنا الزاد بالايدي ، على الطريقة العربية في شبه الجزيرة اليوم . غير ان الضيف لا يشارك ضيوفه في الاكل بل يخدمهم وهو واقف يشرف على الخدم

وكان الخدم تلك الليلة من شبان كتائب حزب الاصلاح في أثوابهم — قمصانهم — الرسمية وكان الحديث في تطوان وتاريخها . فأخبرني جاري ان العلامة المفضال الحاج احمد الرهوني — الرئيس السابق لمجلس التعليم الاسلامي الاعلى — كتب تاريخ تطوان في عشرة مجلدات — غير مطبوعة — طبعاً . وقد أهدى النسخة الخطية الى الاستاذ الطريس يوم زفافه

تاريخ تطوان في عشرة مجلدات ! يا ساتر يا معين ! فكيف السبيل الى الاستماع بعلم الشيخ الرهوني ؟ خطر لي خاطر اذكره الآن ، وأسجل في ختام هذا الفصل شوقي وشكواي

اني أشكو مضيفي الكريم صاحب النسخة الخطية . لا لانهُ طمعت بها فأمسكت — لا والله — فقد أعربت عن رغبتي بنشر نموذج منها ، فعلم دوائر الادب العربي بالكنز التاريخي ، فتأبى ان يقي كنزاً دفيناً ، وهدية عرس . بل رغبت في نشر تاريخ تطوان بالشكل الملائم ليعد قراء هذا الزمان الضيفة . فسألت عبد الخالق أن يأمر أحد كتابه بتلخيص كل مجلد في صفحة واحدة ، فأضعها أنا في بوتقتي وأغليها ، ثم اقدم لقراء هذا الكتاب خلاصة الخلاصة . فأجاب بالايجاب . أي انهُ وعد بأن يفعل

وكررت الطلب فكرر الوعد . وتكرر الوعد فتكرر الطلب . فعلمت وتيقنت ان الوعود في المغرب مثلها في هذا الشرق العربي ، واننا والمغاربة أخوان ، حقاً أخوان